

لَعْنَةُ الْعَرَبِ

مَحَلَّتْهُنَّ نِدَائِي عَلَى سَبَابِ الْخِيَتِ

الجزء الثاني عشر عن جمادى الآخرة ١٣٣٠ = أيار ١٩١٢

وضع اللغات وخضوعها للطبيعة

ذهب الأوائل مذاهب شتى في من هو واضع اللغات ، فقال بعضهم :
انه الخالق العظيم وضعها مباشرة او بالهام منه ؛ وينسب الأصوليون
الى سليمان بن عباد القول بان الوضع حدث بالمناسبة الذاتية ؟؟
ويفسرون هذا الرمز بان الالفاظ بطبيعتها ومناسبة ذاتية فيبدا دلت
على المعاني دلالة اذلية . وخشى بعض اهل الرهبة من علماء الاصول
وجود تلك الروح في الالفاظ واحتمال القدرة او القوة الكامنتين
فيها فاخذ ينزل ذلك ويؤله طبق الاصول المسماة عند العقلاء قائلًا
مامعناه :

ان الالفاظ وان دلت بطبيعتها الا ان المبدأ الاعلى في تلك الدلالة هو الخالق ، شأنه في رجوع اكثر الظواهر الطبيعية اليه ، فدلالة الالفاظ بالطبيعة مثل هبوب الرياح ، ونزول الامطار ، ولعان البرق ، وجولان السحاب ، من رجوعها ظاهراً الى الطبيعة والاسباب المخلوقة وواقعاً الى الخالق . هكذا كتب بعضهم في هذا القول الغريب الذي لا تفهم فلسفته .

ثم ان رأى الممول عليه في هذا العصر ، عصر الانتقاد والتمحيص ، هو ان اللغات كلها جماعاً نشأت من الاصوات الطبيعية وتكونت قهراً بعد ارادة التعبير عن المراتب او غيرها ، من معلومات الانسان الاول ، وليس هذا الرأى بحديث العهد ، فقد قال به بعض العلماء الاول ؛ كما قالوا بكثير من الآراء العلمية المسلمة في هذا العصر المنسوبة اليه ، الممزوجة به . فقد ذهب بعض الاوائل الى حركة الارض وقد عبروا عن الجاذبية بالثقل المركزي وذهبوا ايضاً الى القول بالنشوء والارتقاء واتحاد اصل الكائنات اجمالاً ، الى غير ذلك من المذاهب العلمية التي يحسب بعضهم انها ابكار ، هذه الاعصار . وكذلك قل عن المذاهب الاجتماعية كالاشتراكية والاباحية او السياسية كالجمهورية او الملكية فقد قيل فيها في الازمنة الخالية بل ووضعوها موضع الاعمال .

فالقول بان اللغة من وضع الانسان قديم ، قال العرب به . ومن نذكر ان مذهبهم ذلك ابن سيده القنوي الكبير صاحب المختص امتع

كتاب في اللغة العربية ؛ غير انهم لم يصرحوا فيما اعلم بان الالفاظ تكونت من الاصوات البسيطة بل صرحوا بانها من وضع الانسان مباشرة لا من وضع غيره .

وقد استنكر الجامدون هذا المذهب واعترضوا عليه ذاهبين الى ان الاحاطة بمجملة المعاني الموضوع لها غير مقدور للبشر. فيقال لهم ان المعاني لم تعلم دفعة واحدة ؛ وكذلك الالفاظ لم توضع دفعة واحدة ، بل كلما تجددت المعاني ، وعلا ادراك الانسان ، وتصور الامور الدقيقة ، اضطرت لاحداث الالفاظ متبعا في ذلك التدرج ، لان الطفرة محال هذا ما كان من امر وضع اللغة فقد عرفت ان العرب قالوا باصح الآراء في مشكلة الوضع والواضع . وهناك نواميس طبيعية عامة مثل ناموس (التحول) وناموس (بقاء الاصلح) فهل اللغة خاضعة لها ؟؟ جارية على سنتها جريان سائر الاشياء ، وهل عرف العرب ذلك كما عرفه الافرنج ؟؟ فتجيب بنعم عن الجميع ، واليك البيان :

اللغة كالاخلاق او ككل مميزات الانسان ، خاضعة للقوى العاملة فيه فيصح من بعض الوجوه ان نقول انها كائن حي كالانسان ، ولحياته اطوار كاطوار حياة الانسان ، فما كان ليسمع المقيم في احياء صرب الجاهلية من الالفاظ غالباً الا امثال السباب والبسبب والغبيلان والذعبلية والكوماء والفنيق والبيداء والفيفاء والاجرد وما اشبه ذلك وما كانت تمر الالفاظ المهمة الجزلة المعبرة عن المعاني العالية الا شذائناً . كل ذلك لتأثير محيطهم في اوضاعهم واخلاقهم وظواهرهم الطبيعية

ومنها اللغة التي يتكلمون

ثم آن اوان البعثة فبعث النبي واثرت تعاليمه في نفوسهم فأثرت في لغتهم ، فكنت تسمع فيما يدور على السنتهم الصوم والصلوة والزكاة والعبادة والايمان والاعتقاد والتوبة والثواب والعقاب وغيرها من الالفاظ الدينية [١] ناهيك بالقرآن العظيم ، وما ابقى في لغة العرب ، فقد لطفها ورقق الفاظها وبعث فيها روحاً من الفلسفة الادبية ، ثم لم يطل العهد حتى رأينا في ثنيات الفاظهم : الالفاظ الرياضية ، والعلمية ، والفلسفية ، وذلك في العصر العباسي ، عصر سلطان العرب ، واستفحال حضارتهم العجيبة .

في ذالك العصر رقت لهجة اللغة ، وتمهذت الفاظها ، وحلت لغماتها ، ليس من اجل انبعاث المؤلفين ، والمترجمين فقط ، بل قد ساعد على ذلك جمع من ذوى الذوق ، والقريحة ، وارباب الفنون الجميلة ، وهم طبقة من الشعراء ، والكتاب ، والادباء الفكهين ، ورجال الغناء ، والمطربات ، والمظربين ، فتكونت اذ ذاك آداب اللغة العربية كأرقى ما يمكن ان يكون ، وبلغت شأواً لم تبلغه لغة من اللغات القديمة . [٢]

[١] اغلب هذه الالفاظ صرفت قبل البعثة لوجودها عند نصارى العرب قبل ولادة النبي بازمان طويلة ، يشهد على ذلك وجودها بهذا اللفظ والمعنى في اللغة الارمية (لغة العرب)

[٢] المراد باللغات القديمة اللغات السامية والا فان اللغة اليونانية والرومية كانتا قد بلغتا مبلغاً ارق (لغة العرب)

فن الم بآداب هذه اللغة صرف انها كيف خضعت لناموس (التحول) وكيف اختلفت باختلاف الادوار تابعة سير الناطقين بها قروناً متبادية وصرف ايضاً كيف قضى ناموس (بقاء الاصالح) على الالفاظ الخشنة الوحشية والاصول الضخمة المستكبرة والتراكيب الثقيلة بحيث اصبح الشعراء والكتاب يشمرون منها وينعون على مستعملها ما يفعلون . وقد حفظت المعاجم الكبيرة شيئاً كثيراً من ذلك المتاع الكاسد او قل من تلك الاعضاء الأثرية في جسم اللغة التي قضت الطبيعة عليها بالضمور ، فاصبحت لا وظيفة لها ، غير انها كل وعب ثقيل على كاهل تلك اللغة الشريفة ، ولو دونت تلك الاصول على حدة ، او اصطلح عليها قوم ، لجأت كاثقل ماتحمامه الطباع ، وانكر ما يطرأ الاسماع .

هذا وربما كبر ما نقول على الذين يحبون القديم ، لانه قديم ، فنقول لهم : انا لم نختلف عن سنة السلف من قبلنا ، في ما اردنا من هذه المجالة فانا لنعرف رجالاً من سلفنا الصالح ، كانوا يعتقدون بخضوع اللغة لناموس بقاء الاصالح وقد جروا فيما نظموا وانثروا والفوا على ذلك لا بل الطبيعة اضطرهم اليه .

الف ابو الحسن احمد بن فارس اللغوي المعروف المتوفى سنة ٣٩٨ كتاب (المعجم) وهو الكتاب النادر الوجود ، ، ١ ، وقد قال المؤلف في مقدمته كتابه :

وأبنا في بغداد في هذه السنة خمس نسخ قديمة من المعجم (لغة العرب)

« انشأت هذا الكتاب بمختصر من الكلام قريب ، يقل لفظه ، وتكثر قوائده ، لتبلغ بك طرفاً مما انت ملتصقه ، وسعيت (بحمل اللفظة) لاني اجملت فيه الكلام اجمالاً ، ولم اكثره بالشواهد والتصاريف ، ارادة الايجاز فمن مرافقه قرب ما بين طرفيه ، وصغر حجمه ، ومنها حسن ترتيبه ، اه وقد انتقد هذا الكتاب واختصره الشيخ الاستاذ ابو علي الحسن بن المظفر النيسابوري ، استاذ الزمخشري ، مؤدب اهل خوارزم ومخرجهم ، وشاكرهم في وقته . وقد وقفنا على هذا المختصر المفيد مخطوطاً خطأ قديماً فوجدنا صاحب المختصر كصاحب الاصل ممن يقول مع اهل هذا العصر بخضوع اللغة لناموس (بقا . الانسب) واليك ما جاء في صدر الكتاب :

قال الشيخ الاستاذ العالم ابو علي الحسن بن المظفر النيسابوري : اني لما تصفحت هذا الكتاب ، وجدته في النهاية من الاختصار والكفاية مع ما اختص به من حسن الوضع ، وقرب المأخذ ، وعموم النفع ورأيت ما شذ عنه من العربية وحشيا شاذاً قد درس شأنه ، ! وانقضى زمانه ! وبعد فان هذا الكلام صريح فيما يريد اثباته من ان العرب عرفوا ان لكل عصر آداباً واخلاقاً ، وان الجمهور يناقض السنة الكونية سنة التبديل ، والتحويل وتغير الاشياء ، فالطبيعة تقضي على البشر بالتصرف وهم والمفاهم يتطبعون على الجمود ، ثم ايس ابو المظفر هذا هو كل من يقول بهذا الرأي فان في علماء العرب الاولين جماعاً يرى ذلك . وابلغ شاهد نسوقه لك قصه الشيخ صفي الدين الحلي الشاكر المشهور مع احد

فضلاء عصره ، وقد قرأ شعره ، فقال لا عيب فيه ، سوى قلة استعماله
اللغة العربية ، فكتب الصفي اليه هذه الابيات المعروفة : (٢)
انما الخيزبون والدرديدس والطخا والنقاخ والمسطيس
والسبتى والحقص والهيقي والهجرش والطرقسان والمسطوس
وبعد ان ذكر امثال هذه الالفاظ ، قال :

لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقيح ان يذكر النافر الوحشي منها ويترك المانوس
درست لكم اللغات !! وامسى مذهب الناس ما يقول الرئيس
انما هذه القلوب حديد ولذيذ الالفاظ مضططيس
ومن تنبه لهذه المقالة من المتأخرين الشيخ كاظم الازري شاعر بغداد
في القرن الثاني عشر ، وزاد نغمه في الطنبور انه جمع الى استهجان
الالفاظ القديمة استهجان المعاني المفرغة في تلك الالفاظ . ومن المعجب
انه كان يستعمل ما يستهجن معاني والفاظاً وهي شئنة الشعر آه الاول
يقولون ما لا يفعلون . فقد كتب هذا الشاعر في ما نحن في صدد الى
صديق له ابياتاً جاء فيها :

يا ابا احمد رويداً رويداً انا في الشعر صاحب المعجزات !!!
ان شعراي غريب المعاني رنق غير رائق الكلمات
لو يريد الانسان امثال هذا لاني بالالوف دون المئات
فلمذا صددت عنه صدوداً ونموضت عنه بالبيات

كنقاخ وطحلب وجفساخ وسنيد وشبرق وطخاة
 فالى مثل هذا توجه انظار علماء العربية وذلك لينشئوا فى انحاءهم
 لغة تناسب هذا العصر الذى افضحت فيه اعمال القوى الاجتماعية والطبيعة
 ليسيروا معها لا ليقضوا فى سبيلها جامدين فتقضى الطبيعة على هذا
 اللسان العربى الميين بمقتضى اصولها المقررة اثبتت .
 النجف محمد رضا الشيبى

امثال عوام العراق (عرس الجليلو)

الجليلو (بحيم مثله فارسية وهو من لفظ اهل البادية للكاف
 العربية كما اشرنا اليه سابقا) ، خشرة مائية يبلغ طولها من سنتيمترين
 الى ثلاثة وقد تزيد كيرتها على ذلك ، لونها ليس بابيض يقق ، ولا
 اصفر قاقع ، بل قد يقال انه ازهر (١) ، وجناحاها ابيضان لها
 شوكتان فى ذنبا ، وهى رخوة المجموع غير متماسكة البنية تتأثر من
 اقل ضغط وقد تختلف عما ذكرنا ، ترى على وجه الماء عند الزيادة
 متراكمة بعضها فوق بعض متداخلة كأنها تتسافد او هى كذلك . ترتفع
 قليلا طائفة ثم تسقط سابعة ، ويعمل ذلك بانها تعيش فى ضفاف الانهر
 فإذا زاد الماء اخذها بحرية لضعفها عن المقاومة . وبهذا يفسر عدم
 بقائها على وجه الماء اكثر من يوم او يومين . وعندئذ تغدو فريسة

(١) هو الابيض الذى يخالطه ادنى سفرة (عن فقه اللغة)